العِلم والشِعر
في « الكوميديا الالهية »

رتشرد لوبج

لقد اظهرتُ مؤخرا في مقالة نشرت عام ١٩٦٣ في مجلة « دراسات دانتيّة » الصادرة بفلورنسا، كيف ان دانته في «الجحيم» اقصى العلوم الطبيعية عن نطاق المجهودات المسيحية والانسانية المشروعة ، على اساس ان العقل وحده والحواس المادية ، التي يتوجب على العلوم ان تبني عليها بنيانها باسره ، هي ضعيفة وميالة للخطأ . بيد انه يتوجب على المرء ان يمضي بحذر في تفسيره لعقل دانته من خلال « الكوميديا الالهية »، وهي قصيدة كثيرة الكنايات والاستعارات المطولة وكثيرة الاسرار والغوامض ، التي لا يزال بعضها بلا تفسير ولا حل حتى الآن . والامر الذي ينبغي على المحلل البسيط والصادق ان يتجنبه هو التسرع في الحاق دانته بالقائمة الطويلة لاعداء الفلسفة الانسانية. فبصرف النظر عن ردود فعل دانته المضادة لنوع العلوم الطبيعية الذي رآه يتطور في عالمه المعاصر، فانه يبقى مناصرا لنوع من الفلسفة الانسانية هو اكثر تقدما بكثير من النوع الذي تبناه توما الاقويني (الذي يصححه دانته في « الفردوس ») وقد استمد غذاءه من تربة اغنى بكثير . ومع هذا، فان فلسفة دانته الانسانية ، ان قارنّاها بالفلسفة الانسانية التي جاءت فيما بعد في ايطاليا ، تحتوي على قيود و محدوديات واضحة فرضها على ذاته ، ومن بينها رفض العلوم التي تنحى منحى طبيعيا .

واودّ في الدراسة الحالية ان أتناول هذا السؤال مجددا ، من زاوية نظر اكثر اتساعا من ذي قبل ، بتفحص كل من « الجحيم » و « الفردوس » بغية الوصول الى تقييم صحيح لموقف دانته (المعبر عنه مباشرة او ضمنا) من العلوم الطبيعية ، وبصورة عرضية لموقفه من العلوم العربية ، التي كانت النمط العلمي الدارج بين علماء تلك الايام. وسيتدرج هذا البحث خلال ثلاث مراحل : فساراجع ، اولا ، باقتضاب الارضية الخلفية في « الجحيم » على ضوء شرحي لها في مجلة «دراسات دانتيّة» ؛ وسوف اركز، ثانيا، على الدلالة الجديدة التي اعطيتها لقصة نمرود والمردة في قعر الجحيم ؛ وسادرس ، اخيرا ، كيف عولجت العلوم الطبيعية في « الفردوس » ، الذي يستعاض فيه عن العلم بالشعر في معرفة الحقائق المتصلة بالمصير الانساني .

الحجة ضد العلوم الطبيعية

« الجحيم » هو القسم الاكثر شعبية في « الكوميديا الالهية » ، و يقدم مثالا على المأزق الاساسي الشامل للانسان ، وهو المأزق الذي سعى دانته يائسا ، في « الغابة المظلمة »، الى الخلاص منه . وقد انفرج شعوره باليأس ، لا عن طريق مهارته هو ، بل نتيجة لفيض من التدخلات التي جاءته من العلاء : ذلك ان مريم و بياتريس و لوسي واخيرا فرجيل يأتون جميعا لانقاذ دانته بقواهم الخاصة المختلفة . وفرجيل هو بالطبع الفلسفة الانسانية الوثنية ، لكنه الشعر الازلي بصورة خاصة، لا العقل بحد ذاته كما ظن الكثيرون. وتمثل مريم النعمة، التي اعطيت الامتياز الخاص بالحصول عليها من اجل من يقاسون الغمّ والكرب. و بياتريس هي الحب دون شك ، والفضيلة اللاهوتية «المحبة» ، وهي تسامٍ وتصعيد للحب الذي كان قد اختبره دانته نحوها . اما لوسي فماذا تمثل ، في تدخلها القصير ؟ لقد اعتبرت ، بحق، ممثلة لفضيلة «الايمان» اللاهوتية؛ لكن اسمها، على وجه الدقة ، يعني النور والاستنارة. فالايمان غامض مبهم طالما بقي الانسان مسافرا في محجته الارضية ؛ لكن الايمان يضحي نورا في الفردوس ، وهو نور من الجوهر الالهي الذي يجعل جميع الاشياء ظاهرة ومعروفة. على انه يتوجب على دانته ، قبل ان يستخلص الدلالة الكاملة لجميع هذه التدخلات ، ان يمر عبر الحلقات الجهنمية التي تضم الجيل الضائع كله من البشرية . ولا بدّ له ، كيما يكون مستعدا لرؤية سعادة الانسان المتحققة في السماء ولفهمها ، من ان يشهد الاضطرابات التي ينجرّ اليها الانسان نتيجة استسلامه لبواعث طبيعية خارج نطاق النعمة : كالحب المشوه والكراهية الصريحة ، والشهيات الدنيئة ، وعنف الآثمين ، واخيرا استخدام العقل بصورة شريرة خبيثة . لقد بذل المعقبون الكثير من الجهد لاظهار تدرج الآثام في « جحيم » دانته : الشهوة ، العنف او الحقد ، الخداع . وقد نظر المعقبون عادة الى اثم الخداع على انه فعل الارادة الشريرة ، وهكذا فانهم لم يفسحوا المجال في الواقع الا لبابين رئيسيين من الآثام : آثام الشهية الدنيئة (الشهوة) ، وآثام الارادة (الحقد والخداع) . وقد يكون كل هذا [illegible] ، لولا الاغضاء الخطير عن التقسيم الثلاثي الكلاسيكي للظواهر والمجهودات البشرية: [illegible] الحسية ، و الشهية الفكرية التي هي الارادة البشرية ، واخيرا العقل الذي يخلق [illegible] والعلوم .

[illegible] يعقّب فرجيل على الكتابة المنقوشة على بوابة الجحيم في الانشودة الثالثة، يلمح الى [illegible] المشترك لدى افراد الجيل الضائع : لقد فقدوا جميعا صواب العقل ، وهي الطريقة [illegible] التي عبّر بها دانته عن اخفاقهم كبشر. في القسم الاول من الجحيم، الممتد من المدخل [illegible] ، يلتقي دانته نفوسا جلبت على ذاتها هذا الفقدان نتيجة لانغماسها في [illegible] الحسية للحب المنحرف ، ومن بين هذه النفوس ، الساخطون : ذلك ان السخط

في النظرية الارسطوطاليسية هو اضطراب الارواح المادية في نفس الانسان وهي تنهض للسيطرة على دماغه .

ونرى من الناحية الاخرى ان فلاسفة التراث غير المسيحي وعلماءه موضوعون في قطاع متوسط الراحة ، هو اليمبوس ، حيث بامكانهم حتى ان يستمتعوا بمسرات الرفقة الطيبة، والاحاديث الرفيعة ، والهدوء الذي يمنحه محيط آمن وقور في القصر ذي الجدران السبعة ، التي تمثل الفنون السبعة . ومع ان مصيرهم ليس مفزعا شنيعا كمصير الخطاة من تحتهم ، فثمة قساوة بارعة في حرمانهم الى الابد من « صواب العقل » الذي من اجله عاشوا عيشة صالحة فاضلة .

على المرء ان يتبع دانته عبر حلقات الجحيم السبع الاولى ، المحجوزة للآثام الخفيفة الناجمة عن الشهية والارادة المضطربتين ، قبل ان يقابل اول دفعة من رجال العلم الذين حلت عليهم اللعنة بسبب استخدامهم الخاطىء للعقل. والفريق الاول هو فريق العرافين، الذين يلتقيهم دانته في الدرك الرابع من الحلقة الثامنة (الانشودة ٢٠) . وزعيمة هذا الفريق هي العرافة القديمة مانتو، لكن كثيرا من التخصص في العرافة « العلمية » قد حصل منذ عهدها . والمعاصرون الثلاثة الذين يذكرهم دانته هنا كانوا عرافين ذائعي الصيت، وقد اعتبر اثنان منهم ، وهما مايكل سكوت و غيدو بوناتي ، كرجال علم متضلعين بالتراث العربي ؛ اما الثالث ، وهو اسدينته ، فكان اسكافيا تحول عن حرفته الى التنجيم الشعبي او التبصير في بارما . ويرى دانته ، في شكل العقاب الذي أُنزل بهم في الجحيم — وقد اديرت وجوههم نحو مؤخراتهم، و « امتنع عليهم النظر الى الامام » (البيت ١٥) — النتيجة الوخيمة للتوغل في الاسباب الطبيعية للكون والاجسام السماوية ، بغية التكهن بالمستقبل. ومايكل سكوت بصورة خاصة كان عالما لدى بلاط فريدريك الثاني في ايطاليا ، وقد اسند اليه فضل جلب الترجمات (عندما كان قبل ذلك في جامعة باريس) التي كان قد وضعها في طليطلة للمؤلفات العلمية والفلسفية العربية، مؤلفات ابن سينا وابن رشد وغيرهما. اما بوناتي فكان مؤلفا غزير الانتاج ، الف كتبا عديدة في مواضيع التنجيم، كانت مستقاة جميعها من مصادر عربية . وبسبب التسميات التي الصقت فيما بعد بهذه الفروع من العلوم القروسطية ، كوصفها بانها « شبه علمية » وتدجيل ، مال المعقبون الى التقليل من شأن العلوم الطبيعية المقتبسة عن العرب ، وهي العلوم التي يدينها دانته هنا .

وفي مرحلة متقدمة اخرى نزولاً في الحلقة الثامنة للذين حلت عليهم اللعنة ، في الدرك الثامن، يصف دانته مصير يولسيز و رفقائه (الانشودة ٢٦). كان اثمهم فضولا الى المعرفة لا يرتوي (الابيات ١١٢ — ١٢٠) :

قال يولسيز : « ايها الاخوان ، الذين وصلتم
الى الغرب ، خلال مائة الف من المخاطر ،
انكم لن تريدوا ،
في هذه اللحظة القصيرة من يقظة الحواس
المتبقية لنا ، منع اختبارنا
العالم الخالي من البشر ، فيما وراء الشمس .
ارعوا اصلكم ؛ انكم لم تخلقوا
لتعيشوا كالوحوش ،
ولكن لتبتغوا الفضيلة والمعرفة » .

ان التعطش الى معرفة شكل العالم وتكوينه استنادا الى الاختبار البصري الفعلي، افضى بيولسيز ورفقائه الى تخطي الحدود المعينة للعقل الطبيعي والى ملاقاة هلاكهم : فقد تجاسروا على الابحار في المحيط غير المخطط لبلوغ مناطق محرمة . ولماذا كانت محرمة ؟ لقد وجد منذ اقدم الازمنة فزع حقيقي من التوغل في المحيط الغربي ؛ لكن العالم لم يرَ قط في المحاولة اي شر اخلاقي مباشر : تشهد على ذلك رحلات القديس الايرلندي برندان في القرون المظلمة للعصور الوسيطة . ان ذنب يولسيز، اذاً، هو فضوله الذي لا يرتوي وتعطشه الى المعرفة ، وهو الفضول الذي يبيّن دانته انه يجرّ الانسان الى الافراط والهلاك .

وتشير قصة اخرى من قصص الرحلة عبر الجحيم الى اعتبار دانته، في رؤياه الجديدة، العبث بالطبيعة الذي تنطوي عليه ممارسة الكيمياء الخرافية والفنون العملية، (او، بكلمات اخرى وبلغة اليوم : العلوم الاساسية والتقنولوجيا) ، امراً غير مشروع. في الدرك العاشر من الحلقة الثامنة (الانشودة ٢٩) نجد غريفولينو ، وهو فيزيائي و كيميائي من اريزو ، كان قد حاول خلق آلة طيران لسيده البيرو من سيينا؛ ويحمل دانته الامر على محمل اللهو والمزاح . ومع هذا فان غريفولينو يمضي في قوله ويصرح بان مينوس ، القاضي الذي لا يخطئ، ارسله الى تلك الحلقة لممارسته الكيمياء بين الناس (الابيات ١١٨ — ١٢٠) .

الشخص آخر من الذين انصبت عليهم اللعنة يلتقيه دانته هناك ، وهو كابوتشيو « محول الجنس » والكيميائي الخرافي »(١٣٦)و« القرد البالغ البراعة في تقليد الطبيعة »(١٣٩). ليس من المشروع ، كما شرحها فرجيل لدانته في الانشودة الحادية عشرة (الابيات ٩٧ — ١٠٥) ان يكون « حفيد الله » ، لان الطبيعة في خطة الله «تأخذ مجراها من العقل الالهي وفنه» (٩٩ — ١٠٠) ، وعلى الفن ان يحاول جهده في ان « يتبع الطبيعة كما يتبع التلميذ استاذه » (١٠٣ — ١٠٤) ، لا ان يعبث بها ويحول مجراها — كما كان يفعل الكيميائيون والتقنيون حسب ظن دانته .

الفنون الآلية او الكيمياء الخرافية ، التي تهدف الى تغيير وضع الانسان بوصفه موظفا بالارض وابنا للطبيعة ، انما كانت شريرة حينما عينت لنفسها هذا الهدف .

ولم يشعر دانته و فرجيل بأي تأنيب ضمير حين حملتهم عبر الهواء مخلوقات خرافية مثل غيريون او انتيوس (الانشودة ١٧ والانشودة ٣١) ، لان هذه المخلوقات الخرافية التي ابتدعتها عبقرية الانسان الشعرية او الصانعة للاساطير ، لا تمتّ بصلة الى اهداف العلوم . وهي في عالم « الكوميديا الالهية » تخدم غاية الخالق، دون ان تزرع قط في ذهن الانسان اية فكرة حول تغيير وضعه الطبيعي ، كما قد يحاول ان يفعل العرافون والكيميائيون وغيرهم من العلماء .

ذروة ادانة العلوم في شخص نمرود

من المرجح جدا ان الترتيب الذي نلاحظه في الجماعات المختلفة من رجال العلم في الجحيم ، والتدرج من جماعة لاخرى ، انما كانا متعمدين ، ليساعدانا على اكتناه رأي دانته في المخاطر التي تهدد سعادتنا النهائية ، وهي المخاطر الكامنة في النشاطات المختلفة التي تقوم بها العلوم للتجسس على اسرار الطبيعة . فالطريق المنحدرة الى اسفل تمر بمراقبي النجوم (العرافين و المنجمين) ، ثم بمراقبي الارض (يولسيز) ، وتصل فيما بعد الى الصناع المهرة والكيميائيين (غريفولينو الاريزوي و كابوتشيو) . فجميع انصار العلوم الطبيعية هؤلاء قد تعدوا بطريقة من الطرق على نظام الطبيعة ، الذي هو ابن الله ؛ اي ان « فنهم »لم يكن « حفيد » الله كما توجب عليه ان يكون . وموقف دانته لا يشكل ادانة قاطعة لا ترد للعلوم ، بل انه ينظر اليها على انها تنطوي على نوايا شريرة ، من شأنها تحويل نشاط الطبيعية بعيداً عن قصد الله المرسوم والمحدد في النظام الطبيعي للكون. فقد اظهر دانته في اليمبوس ان الفلسفة و الفيزياء (ابوقراط وابن سينا و غالين و ديوسكوريديس) لا تملكان شخصية شريرة بحد ذاتها ، ومع هذا فانها غير كافيتين لتحقيق سعادة الانسان النهائية . وقد عمد دانته في الواقع الى وضع سيغور البرابانتي في الفردوس ، وهو العالم العظيم المؤمن بفلسفة ابن رشد و منافس توما الاكويني ، وذلك لانه ايد العقل الطبيعي في الفلسفة ، بينما اعترف بمحدودياته (النظرية المعروفة بنظرية الحقيقة المزدوجة، اي : الفلسفة تقول هذا الامر ، لكن الرؤيا الالهية كثيرا ما تحكم بالغاء استنتاجاتها — وهو امر طبيعي تماما، اذا اعتبرنا ان الله يقصد الاحتفاظ بمصير للانسان خارق للطبيعة). ولكن حين تتعدى الفيزياء والفلسفة الطبيعية محدودياتها فعلا ، حين تقومان اثناء دراستها للفيزياء الفلكية وللقوانين المسيطرة على الكون بمحاولةبناء علم للنظام الكوني مبني على عقل الانسان وذكائه ليس الا، تصبح العلوم الطبيعيةعندها فلسفة مادية، اذ ان الاساس الوحيد هو الدليل المستمد من الحواس ومن الادراك العقلي . وستكون هذه ، في الواقع ، عودةالى القوزمولوجيا الوثنية ، وتقهقراً الى العلوم المصرية و البابلية الوثنية او الى القوزمولوجيا

الاغريقية القديمة. ولا يمكن ان يكون القصد الا شريرا، في نظر دانته: فهو في «الفردوس» يضع سليمان ، الذي يثني عليه لنشدانه الحكمة التي طلبها من الله ، مقابل رجال العلم الاغريقيين القدماء الذين بحثوا عن الحكمة الطبيعية بواسطة العلم (« الفردوس » ١٣ : ١٢١ — ١٢٦) :

عبثا عبثا يحاول من يتخلى عن الشاطي
ليتصيد الحقيقة ، وهو يجهل فن الصيادين —
فهو لن يعود الرجل الذي كانه سابقا ؛
انظر كيف ظهر بارمنيدس وبريسون
في نظر العالم، وموليسوس — مدرسة تلو مدرسة —
فقد مضوا في طريقهم ، وهو لا يعرفون الى اين هم ذاهبون .

ان ادانة العلوم الطبيعية التي يجدّ البشر في طلبها لاجل ذاتها تبلغ الذروة في «الجحيم» ، حين يصل دانته الى اشخاص المردة ، وخاصة نمرود (الانشودة ٣١) . فالمكان المجاور « للبئر » حيث اوقف المردة ، بعضهم موثقا بالاغلال ، هو مكان اكثر ظلاما من بقية الجحيم، ويخيم عليه ضباب كثيف يجعل الادراك البصري مغما و زائفا (الابيات ١٠-١٢):

كان الوقت هنا اقل من ليل
وادنى من نهار ،
وامتد بصري الى الامام قليلا ...

ويخيّل الى دانته انه رأى ابراجا تنتصب فوق البئر ، فيخبره فرجيل ان بصره قد اساء فهم الاجسام ، لان هذه مردة . ثم يشرح فرجيل لدانته سبب غلطته ، وهو تفسير يمكن للمرء ان يقرأ من خلاله قصور الادراك الحسي عن بلوغ الحقائق والوقائع (٢٣ — ٢٦) :

انك تحاول ان ترى اكثر مما ينبغي خلال هذي الظلال
المعتمة ... وهذا يجعلك تخطىء التصور ،
وتخطىء في الاستنتاج بعد ان اخطأت في الافتراض ؛
وسترى جليا ، عندما تصل الى هناك ،
الى اي حد يمكن للبعد ان يخدع العين .

« ترى اكثر مما ينبغي » ، « تخطىء التصور » ، « تخطىء في الاستنتاج » — هذه العبارات الثلاث تطابق الفكرة التقليدية عن طرق المعرفة الانسانية : الادراك الحسي ، والمخيلة ، والعقل. وهكذا يثبت فرجيل لدانته ان العلوم الانسانية لا يمكن ان تكون غير وصوصة في الظلام، لا تقدر على اداء المهمة، وتفضي الى الخطأ فيما يتعلق بالحقائق الاساسية للكون . وبوصفه الدليل الصالح المعين من علٍ ليبين لدانته حقائق الجيل الضائع («الجحيم» ٢٩ : ٩٤ — ٩٦) :

انا واحد يهبط ، من افريز لافريز ،
لاقود هذا الانسان الحي ...
وجلّ قصدي ان اظهره على الجحيم

– فانـه يستطيـع اعانة دانتـه على تبديد الافكار الخاطئة التي كونهـا لنفسه باعتماده على بصره وحده . ويكون للمعرفة التي يتلقاها دانته من فرجيل مفعول كتبديد الضباب ، وبعد هذا فحسب يستطيع دانته ان يرى خطأه (« الجحيم » ٣١ : ٣٤ – ٣٩) :

وكما يحدث عندما ينقشع الضباب ،
فتتبين العين قليلا قليلا
ما يخفيه البخار الذي يكثفه الهواء ،
هكذا بينما كنا نخترق الهواء المظلم الكثيف ،
ونحن نقترب رويدا رويدا من الشاطىء ،
زايلني الخطأ ، وزاد عندي الخوف .

فيصبح الآن بوسع دانته رؤية الشكل الهـائل الشنيع للمردة حول البئر ، وينتابه شعور بالفزع . هذه هي اللحظة التي يسمع فيها المارد نمرود يطلق تلك الصرخات (البيت ٦٧) التي كانت تدعى على الدوام تقريبا مجرد لغو وهذر لا معنى لها–لكنها في الواقع مفردات عربية يعترف فيها بجريمته ، وهي جريمة قيامه بملاحقة العلوم الزائفة الكاذبة والنصح بهـا والدعوة اليهـا : "Rafel mai amech zabi almi" (غافِل معي عمق ذا بعلم) – اي : « هذه الهاوية (العمق) ، التي معي ، هي حماقة خالصة ، بسبب العلم » .

وقد توصلت الى هذا التأويل بالاشارة الى كتاب يدعى «كتاب نمرود» يعود عهده الى القرون الوسيطة ، وهو كتاب يظهر فيه هذا المارد التوراتي وهو يمتدح العلوم الطبيعية التي تفضي الى تفهم البنيان الجوهري للكون ، دونما حاجة الى فكرة الخالق. فالقوة الكونية التي تمسك بالعالم وتمنعه من التفكك تكمن في وسط الارض ، وباستطاعة العلماء ان يفهموا الكون باسره بمجرد استخدامهم للجداول والتقاويم. وادعى نمرود ايضا ان العلوم هي الملاذ الاخير للرجل الحكيم ضد تقلبات الحظ. ويمضي الكتاب قائلا ان معاصري نمرود اعتبروا حكمته عظيمة جدا حتى انهم ارادوا اعلانه الها .

وكان دانته قد اظهر في كتابه « في اللغة الدارجة » كيف ان نمرود خدع ابناء البشرية بدعوتهم الى المهمة الشريرة ، مهمة تشييد برج في سنـار ، يرفعهم الى مكان قريب من السماوات ويضعهم حتى فوق الخـالق . وعلى هذا النحو قـام القديس برنارد في « الموعظة الرابعة حول الصعود » بمقارنة رجال العلم في زمانه بمشيدي برج بابـل ، الذين استهدفوا بمعرفتهم مضاهاة الخالق والتفوق عليه. وثمة اثباتات كثيرة تشهد على انتشار هذه الفكرة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، – وانها لمفاجأة سارة ان نكتشف ، من خلال كلمات نمرود العربية ، ان دانته يتبنى من جديد هذا الاتجاه ضد رجال العلم . وباستطاعة المرء ان

يدرك النية المخبأة في استخدام الكلمات العربية على لسان نمرود بعد ان يعرف ان العلوم العربية كانت في زمن دانته الزيّ الدارج في الفكر الغربي، على الاقل بين المتخصصين بالعلوم. وكان تأثير العرب على الغرب عن طريق العلم في ذلك الزمن ، الواسطة الوحيدة للروح العلمية التي استهدفها دانته ؛ ومن هنا لجوءه الى هذه الوسيلة الغريبة واستخدامه للجملة العربية ، لادانتها وشجبها — في شخص نمرود ، المارد القديم الذي نسب اليه « كتاب نمرود » ، الذي كان يحظى بانتشار واسع في القرون الوسيطة .

احلال الشعر والرؤيا مكان العلوم الطبيعية

ان الاستقصاء السالف لموقف دانته من العلم كان مرتكزا على « الجحيم » وحده ، من تسلسل الامثلة على العقابات التي يلقاها رجال العلم هناك . والآن يمكن الحصول على اثبات واف لهذه النظرة ، وعلى فهم اكيد لنظرة دانته النهائية فيما يختص بطرق المعرفة ، وذلك باستقصائنا لحالات مختلفة في « الفردوس » .

(أ) في اولى انشودات « الفردوس » اطلاقا (الابيات ٥٥ — ٥٧)، نقرأ ، بما لا يحتمل لبسا ولا ابهاما ، ان معرفة الحقائق السماوية التي تعتمد عليها سعادة الانسان ، ممنوعة عن الحواس البشرية في نطاقها المحدود :

هناك يُسمح بالكثير مما هو محرم
هنا على قوانا ؛ في ذلك المكان البديع
الذي عيّن للبشرية ان تملكه ، وفيه ان تقيم.

ان المعرفة التي يبدأ دانته هنا باكتسابها — رويدا في بادىء الامر لان وفرة الضوء اعمت حواسه ، الى ان تتخطى حواسه حدودها البشرية («الفردوس» ١ : ٧٠) وتضحي قادرة على استيعاب المزيد والمزيد من الحقائق — هذه المعرفة ليست ذات طابع خارق للطبيعة وحسب ، بل هي تشتمل على رؤيا مباشرة للكون المادي في جزئه الفلكي (وهو نطاق علم الفلك وعلم التنجيم التقليدي). ولم يشر المعقبون الا بصورة مقتضبة الى النظريات الفلكية التنجيمية المكثفة التي تتخلل «الفردوس». فدانته هنا «يرفع الى ما فوق البشري» ما كان العالم في القرون الوسيطة قد تلقنه من العرب . وكان اختباره الاول، برؤية الشمس والعوالم في الانشودة الاولى ، قد خدره ، واعترف بانه لا يستطيع الفهم في البداية . فتأتي بياتريس ، التي تتسلم هنا مهمة التعليم التي كان قد قام بها فرجيل في الجحيم ، وتشرح له سبب ما يجده من صعوبة : فدانته ، الذي لم يكن قد نبذ كل عاداته القديمة بعد، ما يزال يعتمد على قوته الذهنية وحدها ليفهم (٨٨ — ٩٠) :

انك تبلد ذهنك
بالمخيلة الزائفة ، ولا تدرك
ذاك الذي ستدركه ، ان انت تخلصت منها .

وكما حدث في الجحيم ، يصار مجددا الى اعلان ان المخيلة وحدها في خدمة ملكة التعقل والتفكير لا تكفي . وتمضي بياتريس (من البيت ٩١ حتى نهاية الانشودة) فتقدم لدانته درسا في التفكير و التعقل في الحالة الما فوق البشرية : فهو يجب ان يبدأ من مبدأ ان «مثال الله مطبوع على الكل »(٥ — ٦). وكل استخدام آخر للعقل «هو ثرثرة اطفال»(١٠٢).

(ب) الانشودة الثانية من «الفردوس» هي تركيز مذهبي من شأنه ان يصفي فورا جميع الحسابات مع العمليات الطبيعية لمعرفة الانسان وادراكه . تبدأ الانشودة بانذار خطير ، موجه بعبارات شعرية رائعة الى العقول الصغيرة التي تركب صَدفة زورق صغير ، ولا تتبع النشيد الا لانها « متشوقة الى المعرفة » ، — بالا تحاول الابحار في بحور غير مخططة في اثر الشاعر ، وبالبقاء على الشاطىء ، لئلا تفقد الدليل وتفقد نفسها اثناء سفرتها البحرية المعرضة للاخطار (الابيات ١ — ٦) :

انتم يا من تتبعون في اصداف محار صغيرة
(من اجل النشيد) سفينتي المبحرة في المقدمة
تشق سبيلها وتنشد وهي تسير —
عودوا ادراجكم وانشدوا امان الشاطي ؛
لا تعهدوا بانفسكم لليم ، لئلا تفقدوني وتفقدوا
انفسكم على غرة ، ولا تعودوا الى المرفأ قط .

ويظهر التلميح الى القوى المحدودة للعقل والمخيلة الانسانيين بصورة شفافة في « اصداف المحار الخفيفة »، وفي « من اجل النشيد » (او « التشوق الى المعرفة ») التي تشير الى باعث الفضول في الاصغاء الى النشيد الذي يتحدث عن اصقاع جديدة غير مخططة . وللشعراء وحدهم ، تلامذة ابولو و منيرفا وعرائس الشعر التسع ، ان ينتفعوا من اتّباع شراع الشاعر (٧—٩):

تقتحم سفينتي محيطات غير مقتحمة بعد ؛
يدير ابولو الدفة ، وتمنح منيرفا النسيم ،
وعرائس الشعر التسع يوجهنني الى الدبين .

حين كان دانته في الجحيم اطلع على غباوة نمرود الذي حاول بالعلم ان يفسر القوة المركزية للكون ؛ ومن ثم استولى عليه الفزع عندما خطرت له الفكرة بانه يتوجب عليه هو نفسه القيام بمهمة مماثلة . ولما ادرك بمزيد من الوضوح معنى مهمته الشعرية في رفقة فرجيل ، توسل اذ ذاك الى عرائس الشعر ان يبيّنّ له الطريق الصحيحة (« الجحيم » ٣٢ : ١—٩) :

لو كانت لي قوافٍ لاذعة خشنة ،
تناسب الهوة البائسة
التي ارتكزت فوقها سائر الصخور ،
لوفيت التعبير عن عصارة فكري ؛
ولكن ما دمت لا املكها

فلن احمل نفسي على القول دون رهبة ؛
لانه ليس مقصدا يؤخذ مأخذ اللهو ،
ان يوصف مركز العالم كله—
ويجب الا يترك للسان طفل هاذر .

ثم طلب اذ ذاك من عرائس الشعر ان يلهمنه ؛ اي طلب شعرا عوضا عن علوم نمرود (١٠ — ١٢) :

ولكن فلتساعد شعري اولئك الربات
اللائي ساعدن امفيون في اغلاق طيبة
حتى لا تحيد ابياتي الهائمة عن جادة الحقيقة .

وفي كل من « الجحيم » و « الفردوس » ، يحل الشعر محل العلوم ؛ وهو وضع كان قد رمز اليه مقدما بانتقاء فرجيل كدليل له . اما في « الفردوس » ، فان نفوسا صوفية تدعى ايضا لاتباع الشاعر ، لان تلك النفوس كانت قد امتدت لتتناول خبز الملائكة (٢ : ١٠ — ١٥) :

ولكن انت، ايتها النفوس النادرة ، التي امتددتِ لتتناولي
قبل الاوان خبز الملائكة ، غذاء البشر
الذي يعيشون عليه هنا ، ولا يتخمون،
لك ان تستودعي مركبك الشاطي
وتلحقي بسفينتي ، حيث تنهزم الاخاديد والحفر
قبل ان تستوي المياه الهائجة من جديد.

هذا الوصف يطابق اختبار الصوفيين بوصفه مماثلا لاختبار الشاعر (« ان تلحقي بسفينتي ») ، اذ ان نشوة الصوفيين الروحية لا تترك اثرا لمحتويات الاختبار بعد مرور اللحظة. اما الشاعر فهو كالنبي، من حيث انه قد يستطيع— وان يكن بشيء من الصعوبة بسبب ضعف الذاكرة — ان يعطي صورة عن بعض الآثار الواهية لاختباراته في شكل قصيدة (« الفردوس » ١ : ٤ — ٩) :

كنت ضمن تلك السماء التي تتقبل كما لا تتقبل سواها ضياءه ،
ورأيت اشياء لا يعرفها بشري
ولا يستطيع تذكارها ، حينما يعود من ذلك العلو الشاهق .
ذلك ان عقلنا حين يقترب
من رغباته ، تصير دروبه من العمق
بحيث لا تقدر الذاكرة على اتباعه حيثما يذهب .

لذلك فان الشعر والاختبار الصوفي ، وحدهما يستطيعان ادراك الحقائق الازلية ، بما فيها تلك المتصلة بالكون المادي ، كالعوالم الكوكبية السماوية .

وفي اجزاء لاحقة من الانشودة الثانية نرى ان الحواس ، وهي ابواب العلوم الطبيعية،

لا تستطيع ان تساعد على حل الغاز الكون الرئيسية ، وان العقل بدوره لا يقوى على التعويض (الابيات ٥٢ — ٥٧) :

ابتسمت قليلا ، وقالت : « وان اخطأ حدس
البشر ، حيث لا تقدر الحواس على
حل الاحجية ، حتى وان حاولوا جهدهم ،
فان سهام العجب لن تتراشق عليك انت ،
لانك ، وان تقد الحواس الطريق ، تعي الآن
قمما لا تقوى اجنحة العقل على السمو اليها » .

ولاقامة البرهان المادي ، ولوضع حد لكل ادعاءات العلوم ، تقترح بياتريس من ثم ، بخصوص مشكلة البقع على القمر ، اجراء اختبار بالمرايا — وهي عملية علمية حقة ، لكنها تهدف الى اظهار خطل التفسيرات العلمية للكون حين تكون مرتكزة على الاختبار . وهكذا تُدحض العلوم باسلوبها هي . وفي النهاية ، تقدم بياتريس التفسير **الحقيقي** للبقع على القمر ، وهو تفسير من الواضح ان العلم والاختبار لن يتوصلا اليه ابدا ، لانه يرتكز على اشعاع نور الجوهر الالهي الذي يتخلل الكون باسره (١ : ١ — ٣) :

مجد الذي يحرك كل الاشياء قاطبة
يتخلل الكون ، ويشتعل البهاء
مضيئا ، اشد هنا ، اخف هناك .

ويبدو ان نتيجة هذا المشهد الصغير فيما يتصل بالعلوم التجريبية هي ان دانته يرفض فكرة ان العلوم ، المبنية على التجربة والخطأ ، قد تصحح ذاتها مع ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة ؛ بل انه ، على العكس من ذلك ، يلمح بوضوح الى انه يمكن اقامة البرهان على ان العلوم هي مصدر للخطأ فيما يتعلق بالحقيقة النهائية . وتقدم بياتريس الامثولة حين تصف عقل دانته بعد التجربة بانه قد « عرّي حتى اساسه المجرد » ؛ ولذلك يمكنها عند هذه النقطة ان تطلعه على التفسير الصحيح للظاهرة الطبيعية ، ظاهرة البقع على القمر (٢ : ١٠٦ — ١١١) :

الآن ، كما ان الثلج المستسلم للذوبان الدافىء
يتعرى حتى اساسه المجرد ، ويضع عنه
البرودة والبياض اللذين اكتساهما قبلا ،
هكذا عرّي عقلك ؛ والآن
سأملأك بنور حي هو من البهاء
بحيث يتراقص كنجمة متلألئة امام عينيك .

وهكذا فان ازالة البرودة والبياض الطبيعيين عن عقل دانته لن تتم بواسطة الاختبار المتكرر والمصحح لذاته ، بل بواسطة الرؤيا الالهية والرؤيا الشعرية . وينبغي على دانته ان يذكر ذلك حين يعود الى الارض ؛ فبدل ان يهدر وقته على العلوم ، عليه ان يدرب نفسه

على استذكار الطريق الصحيحة (١٢٤ — ١٢٦) :

اذكر جيدا الطريق التي اعبرها ، لاعرّف
عقلك الآن على الحقيقة التي يبتغيها ،
وتعلّم من الآن فصاعدا اجتياز هذه المحاضة وحدك .

(ج) كلما تقدمنا مع دانته في الطريق الى السماوات العليا، يزداد اطلاعنا ، في مناسبات مختلفة ، على السبب الاساسي لهذا التقصير الجذري في العلوم الطبيعية . ويمكننا العثور على اوضح تعبير عن هذا التقصير في الانشودة الثامنة والعشرين (٤٩ — ٥١) :

لكن في العالم ادناه تنعكس الامور ،
فكل كرة تكون اكثر تشبعا بحب الله
كلما بدت ابعد عن النقطة الوسطى.

على هـذا فالارض — اذ تقع في وسط الكون بالضبط ، كما اشير الى ذلك بوجود المردة والشيطان لوسيفر فيها، لانها ابعد ما تكون عن الله — هي بالتالي اقلّ تشبعا من غيرهـا ولا شك بنور جوهر الله . امـا في السماء ، فالامر على العكس من ذلك ، حيث لا توجد مـادة ارضية ، وحيث جوار الجوهر الالهي اشدّ و اعظم : « لا يبني التخوم الا الحب والنور » (٥٤) ، — في حين انه على الارض «تنحرف النسخة عن نموذجها» (٥٦).ها هنا اذاً السبب الرئيسي الذي يجعل العلوم الطبيعية، التي تستمد اختبارها من النسخة الخاطئة، عاجزة عن الوصول الى الحقيقة الصحيحة ، حتى ولو عمدت الى الاختبارات المتكررة الى ما لا نهاية . وهكذا فان كلا من « الموضوع » الذي يتحـلى بالمعرفة ، اي الانسان بحواسه الناقصة وعقله غير التام ، « والغرض » الذي تستهدفه المعرفة ، اي الطبيعة النـائية جدا عن النور والحب، يحيلان وسائل العلوم الطبيعية عاجزة عجزا تاما. وقد اكد توماالاقويني ايضا على المبدأ عينه في الانشودة الثالثة عشرة (٧٦ — ٧٨) :

الطبيعة تعمَه ، ولا تملك قدرة اكيدة
على ادواتها ، فهي مثل صانع ماهر
يتقن حرفته ، لكنه يملك يدا مرتجفة .

ولكي يعرف الانسان الطبيعة ، التي هي في الواقع انعكاس لجوهر الله ، كما بيّن دانته في « الجحيم » ، عليه اولا ان يملك **شعورا** بالله (« الفردوس » ١٠ : ١ — ٦) :

القدير القديم الذي تفوق عظمته كل وصف ،
اذ ينظر الى ابنه بحب
يبثه كل منهما الى الابد ،
جعل كل الاشياء التي تدور في العقل والفضاء تتحرك
في نظام عظيم ، لن يدركه احد
ان لم يملك شعورا بالله .

وهكذا تتم ادانة جهود القوزمولوجيين الاغريقيين القدامى الذين حاولوا ان يفقهوا الطبيعة باستخدام العقل البشري وحده .

(د) ان المخاطر المحتمة في مهنة المفكرين تكمن ، في نظر دانته ، وراء المشاغل التي انهمك بها المجتمع في القرون الوسيطة . وعلى النقيض من ذلك ، نلاحظ ان المديح يكال الى الملك سليمان لانه لم يطلب الا الحكمة لتحقيق واجبه الملكي المعين له («الفردوس» ١٣ : ٩٧ -- ١٠٢) :

لا كيف يحصي محركي الاجسام العالية (الفلك والتنجيم)
ولا ان يعرف ما اذا كان « العرضي » و « الضروري »
ينتج عنهما « الضروري » في البرهان الاخير ، (المنطق والجدل)
لا ان كان يمكن القول بوجود حركة اولى (الطبيعةوالفيزياء)
ولا اذا كان القول بان « المثلثات في انصاف دوائر يجب
ان تكون ذات زوايا قائمة » يعرض الحقائق بدقة . (العلوم الرياضية)

هكذا يمدح توما الاقويني سليمان ، مثال الحكمة التي يمكن ان ينالها الانسان : ومع هذا ، فانه لم يحقق دعوته العظيمة عن طريق العلم ، كما فعل الملك نمرود ، ولا عن طريق عقل تشرب العلوم الدنيوية ، بل حققها باختياره الحكمة المتلقاة من الله نفسه ، كما ورد في سفر « الملوك الاول » من الكتاب المقدس (٣ : ٥ فما بعد) .

في الانشودة الحادية عشرة من « الفردوس » ، يقارن دانته حالته السعيدة الراهنة اثناء الرؤيا في الفردوس ، بنشاطات الحياة الباطلة في المجتمع الدنيوي الارضي ، وان يكن مجتمعا مسيحيا : فكل شيء باطل خلال الاهتمام الرئيسي بالغبطة و السعادة الازلية (الابيات ١ — ١٢) :

يا لطموح البشر الاخرق !
اي تعليلات قياسية ضالة (المنطق والجدل)
تثقل جناحيك وتشدهما الى التفاهة الدنيوية !
يلاحقون النجاح القضائي او النجاح الحكمي ، (القانون والطب)
وترقيات الكنيسة ، والسيطرة
بأي وسيلة ، وحشية كانت او سفسطائية .
واحد منكب على التجارة ، وواحد على السلب و الخداع ، (الربا)
وآخر يضني ذاته في ملذاته الجسدية ،
وهو فيها اسير ، وواحد متسطح في بطالة كسول —
هناك كانوا جميعا ؛ بينما كنت انا ، في حل مبارك
من كل هذي المشاغل ، الى جانب بياتريس
استمتع بترحيب السماء بي ترحيبا مجيدا فائقا .

تردد هذه الابيات مقطعا مماثلا في « الموعظة الرابعة حول الصعود » التي يهاجم فيها

القديس برنارد الاهتمامات الباطلة لعلماء المنطق والجدل والمحامين وعلماء القانون الكنسي ، – وهي موازاة ادت بالبعض الى الاشتباه بان تفكير القديس برنارد قد ترك تأثيرا عميقا، لم يلق انتباها كافيا حتى الآن ، في مفهوم دانته للحياة الفكرية في « الكوميديا الالهية ». بل ان صورة نمرود كمثال رئيسي للكبرياء البشرية المفرطة بسبب المعرفة ، قد يكون دانته استعارها من القديس برنارد .

ويجاهر دانته ،في حضور النفوس التي تشكل «النسر» في الفردوس، (الانشودة١٩)، بالخيبات الفكرية التي اختبرها دوما على الارض (٢٥ – ٢٧) :

والآن ، بما تنفخينه من نسائم ، خففي القحط
الذي طالما عانيته وطالما هدني الجوع
لانني لم اعثر على غذاء له على الارض .

امـا الآن وهو في السماء – توجهه بيـاتريس ويرشده نور الجوهر الالهي الذي هو مصدر المعرفة الصحيحة – فان دانته يعقد آمالاً بالحصول على قناعة فكرية (٣١ – ٣٣):

بكم من اللهفة انتظر الحقيقة اخيرا ،
وما الذي لم افهمه ابدا ،
انت تعرفين – وتعرفين كل اسباب قحطي وصيامي .

كان سبب خيبته تقصير العقل البشري عن تفسير العدالة في وضع كافرين صـالحين (عالم العقل الطبيعي) في اليمبوس وابقائهم فيه الى ابد الآبدين ؛ وقد استثناهم الله من الخيرالنهائي للانسان . وتجيبه الارواح التي وجه اليها دعاءه ، بتفسير مذهبي يمكن اعتباره ملخصـا للمحدوديات المختلفة للعقل البشري، وبالتالي للعلوم الطبيعية المبنية على هذه الملكة الضعيفة (٤٩ – ٥٧) :

... الطبائع الادنى ، جميعا ،
هي اوعية ضيقة جدا على ذاك « الخير » الذي يبقى
بلا حدود ، ولا يقاس الا على ذاته .
وبصرنا ، الذي لا بد وان يكون واحداً فحسب بين
شعاعات ذاك العقل العظيم المالىء كل المخلوقات حتى الامتلاء ،
لا يقدر ابدا ، اذاً ، بطبيعة الحال ،
على امتلاك مثل هذه القوة العظيمة ، بل ينبغي على
جوهره ان ينفذ الى ما وراءه ، وان يدرك
اكثر بكثير مما هو ظاهر لعينيك .

وتختتم الارواح المباركة اجابتها بقولها ، بعد قليل (٦٤ – ٦٦) :

ما من نور ، الا من ذاك الهادىء الساكن
الذي لا يضطرب ابدا ؛ وكل ماعداه ظلام ،
ظل جسد ، او سمه الاسود .

بعد ان اجرت بياتريس اختبارها بالمرايا واثبتت ضعف العلوم ، كان دانته قد تهيـأ

لفهم الامثولة النهـائية حول المصدر الحق والموثوق الوحيد للمعرفة في عقـل الانسان (« الفردوس » ٣ : ١ — ٥) :

الشمس التي ادفأت صدري اولا بالحب
قد اخرجت الى النور وجه الحقيقة البهي ،
وحسرت عنه اللثام بالبرهان والبرهان المضاد .
اما وقد صُححت واقتنعتُ، فعليّ ان
اعترف في الحال ...

لهذا فان العلم الشرعي الوحيد هو الذي ينبثق عن النور الالهي الموزع والمشاع في جميع ارجاء الخليقة ، والخطوة الاولى لادراكه يجب ان تكون عن طريق الحب والاتحاد بهذا النور . ولا يبدو هذا ممكنـا الا للشعراء والصوفيين ؛ وعلى جميع الحرف والمشاغـل والنشاطات البشرية الاخرى ان تستمد جدارتها واستحقاقها من الاعتراف الصادق بنظام العدالة الالهيةهذا والخضوع له . واي موقفغير هذا هو باطل، بل انه خطير كالاتروبين والسمّ الاسود .

ان الدعوى والقضية ضد الاجتهاد البشري الذي ينشد تعلم الحقائق الجوهرية بالاستناد الى نشاط العقل الانساني بمفرده، دعوى لا يمكن ارجاء الحكم ووقف التنفيذ فيها. فالعلوم الطبيعية في وضع ادانة بالنظر لمطامحها المتعجرفة، كما في حال نمرود؛ وهي باطلة لا قيمة لها حين ينشدها البشر دون ان يدركوا محدودياتها ، بدليل وجود الفلاسفة والعلماء الصالحين في اليمبوس. اما الشعر، من الجهة الاخرى — الذي هو شعاع ارضي منبعث عن النور والحب الالهيين ، وليس مجرد نظم — فله ان يقترب من الحقيقة على الارض بقدر ما هو ممكن بالنسبة للبشر الفانين ، وان يضعهم على الطريق الصحيح نحو مصيرهم. وهكذا ايضا تفعل الصوفية التي تقتات على « خبز الملائكة » ؛ لكن الفـارق هو ان الشاعر ، شأنه في ذلك شأن النبي المصطفى من الله ، مؤتمن على مهمة ، هي تذكير البشر بهذه الحقائق على الدوام.